

صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

٣- العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تمة البحث

أتينا فيما تقدم على أخبار الغزوات والمستعمرات المسلمة في غاليس ولومبارديا وسويسره منذ أواخر القرن الثامن الميلادي حتى جلاء المسلمين نهائياً عن تلك الوهاد والسهول في أواخر القرن العاشر ، ومحاوّل الآن أن نعرض طرفاً من العوامل والظروف التي أحاطت بتلك الغزوات ، وطرفاً من الآثار التي خلفتها في البلاد والأم التي كانت ميداناً لها

ينكر بعض مؤرخي الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والاسلامية بوجه عام خاصة الاستقرار والانشاء ، ويقولون إنها كانت في الغالب حملات ناهية تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الفنائم ، ولا ريب أن ظلاً للمغم ، وشغف

وسمع من في الجانب الشرق من النيل بضجة الحرب ، ورأوا ما اندلع فيها من لهب ، وما تردد فيها من قصف يشبه قصف الرعد ، فلم تثبت نفوسهم بما لا عهد لهم به ، وإن كانوا حريصين على أن يجاهدوا وبجالدوا ، وظنهم الجلد وإن كانت نفوسهم تواقفة الى أن يثبتوا ويصبروا . والدعرتى استولى على النفس ، لم يبق فيها عمل لثبات ولا لصبر ، ولم يترك في القلب موحماً لحفاظ ولا حمية . فركبوا رءوسهم وهاموا على وجوههم ، بعضهم ناج بنفسه لا يلوى على شيء ، وبعضهم استطاع أن يثبت نفسه ليخرج بأهله وجرمه ، وأقبل عليهم الليل ، وهم فوضى مشردون مشدوهون ، يحسبون كل نجة صوت مطارد ، ويخشون أن يكون كل متردد في الظلام عدواً مقبلاً بسفك الدماء وهتك الأعراض وهكذا شهدت أهرام مصر كيف تم للطاغية جرمته بتكبة شاملة ، لا يبق فيها بر ولا قاجر ، ولا يسلم منها الظالم ولا الضحية محمد زبير أبو صبر

الغامرة ، وما إليهما من لذة الاستكشاف والسيادة كانت من أهم العوامل التي قامت عليها هذه الغزوات ؛ وتلك هي العوامل الخالدة التي تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن زعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك الغامرين البواسل كانت تحفزهم الحماسة الدينية وفكرة الجهاد في سبيل الله ؛ وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل في الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف الحكومات والأمم الاسلامية التي تنتمي إليها ، وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات جليلة بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية وإضعاف جيوشها ومواردها ، ومن المحقق أيضاً أن زعة الاستقرار والأنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستماری القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها^(١) ؛ وقد استقروا بالفعل واستعمروا حيث سهدت لهم الكثرة والقوة سبل البقاء ، كما فعلوا في أفريقيا ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها ، زهاء قرن وثلاث قرن (٨٢٧-٩٦١ م) ونشروا بها الاسلام والحضارة الاسلامية ؛ وكذلك استقروا مدى حين في باري وفي تارانت من نفور إيطاليا الجنوبية ، وفي راجوازا (رغوس) من نفور الأهدياتيك الشرقية ، وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوب إيطاليا) مستعمرات زاهرة ليثت حلية هذه البيا عسراً . هذا ولستنا نتحدث عن دولة الاسلام في اسبانيا ، ولا دولة الاسلام في سقلية ، لأننا نخص بهذا الحديث غزوات الجماعات والعصابات المسلمة التي كانت تعمل لحساب نفسها مستقلة عن الحكومات

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً في تصوير الآثار الخربة لتلك الغزوات الاسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك ، ولكن العنف والقوة والسفك والتخريب لم تكن خاصة بالغزوات الاسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ؛ ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الاسلامية أقل عنفاً وسفكاً ؛ ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الاسلامية أروع صنوف الفمار

والسفنك ؛ بل يكفي أن يشير إلى ما كانت تركبه البعوث الاستعمارية الحديثة ، الإسبانية والانكليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما تركبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتقدمة » من الجرائم المروعة في أفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار

والآن لرمادا خلفته الغزوات الاسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المتقرب ، ويلاحظ أولاً أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدما أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الاسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت أقرب إلى الغامرات المؤقتة منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تمنح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمي ، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين يشغلون قبل كل شيء بالقطع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة ، وهذه المستعمرات العربية النائية خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة بعض الآثار الهامة المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته الباحث الأثرية منذ القرن الماضي على شواطئ خليج سان ترويه من أطلال الحصون العربية القديمة التي كانت قائمة في تلك الأرض ، والتي لا تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهي تدل على ما كان للغزاة من الحدق والبراعة في فن التحصينات والمنشآت الحربية ؛ وهنالك في جنوب فرنسا ، وفي بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية ؛ ويرى البعض أن هذه الأبراج إنما هي آثار عربية من مخلفات الغزاة ، كانت تبني لمقد حلقات الاتصال وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحهم الأولى في سبانيا (لانجدوك) أعني منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ليستعينوا بها على رد الغزاة

وقد ظفرت الباحث الأثرية أيضاً بالمشور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) في أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروقانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ، ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع الى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً في الأعوام الأخيرة في منطقة تور سيوف ودروع قيل إنها عربية من مخلفات الواقعة الشهيرة التي نشبت في تلك السهول بين العرب والفرنج (بلاط الشهداء) ومن الحقائق التي لا شك فيها أثر العرب في الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخللوا عن إخوانهم واستقروا في تلك الأرض وزرعوها . ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدية الى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا اليها مختلف الفراس من الشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة ؛ وقد حمل هؤلاء الغزاة الفامرون الى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء ؛ ويقال إن « القمح الأحمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره وكانوا أول من زرعه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فساتل النخيل من اسبانيا وأفريقية الى شواطئ الريفيرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذي تطلبه قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروقانس ، وما زال عندهم من الصناعات الدائمة ، وما زال اسمه الفرنسي « Quitran » يتم عن أصله العربي

ومن الحقائق الثابتة أيضاً فضل العرب في تحسين نمل الخيل في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في « كاماراج » ، وفي مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ؛ ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة إنما هي من سلالة الخيول العربية التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم الى تلك الأنحاء ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا ، فقد رأينا أن العرب أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية وتزوجوا من نساء تلك الأرض وتناسلوا فيها ؛ ولما تقلب عليهم النصرى ، وأخرجوا نهائياً من تلك الأرض ، تنصر كثير منهم ممن آمنوا ، وأرغموا على اقتداء حياتهم وأسرهم بالتصنر ؛ وقد

« إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا في الكتب . ولكن ما السر في أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة في جميع الأذهان ؟ لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بها بعد الغزوات النورمانية والمجرية . وإن غزوات العرب الأولى ليطلبها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك أن العرب ، دون النورمان والمجر ، ساروا مدى آمان في طليعة الحضارة ؛ ثم انهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا ، موضع الروح في شواطئنا ، وأخيراً لأن المارك التي اضطلموا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وأفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً . بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفي لتليل المكانة العظيمة التي يتبوأها الاسم العربي في أوروبا وفي أذهان المجتمع الأوربي . أما السبب الحقيقي لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذي بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا^(١) »

محمد عبد الله عنده
الحامى

(١) Reinaud, ibid, p. 311,312 وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة في كثير من هذه النقط الخاصة بآثار العرب في جنوب فرنسا

تاريخ حضير

٥٠٦٥٠
تاريخ



١٠٥٧
صداق بركة

بريشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات

لستعمله الحكيم كوماتل شرقية
مكتبة ومطبعة خضير باشا عبد العزيز بصر

لبث أبناء هؤلاء العرب المتصرين عصوراً في تلك البلاد ، يشغلون بالزراعة والتجارة ، حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا أخيراً في المجتمع النصراني ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية . ، وما زالت نعمة في بروقانس في وادي الرون على مقربة من ليون ، وكذلك في بيجور على مقربة من جبال البرنيه ، جماعات فرنسية تتكلم لهجات غربية ، ولها أخلاق وتقاليد خاصة ، ويظن البعض أنها ترجع إلى أصل عربي ؛ ولكن البحث يرجح أنها ترجع الى بعض قبائل النور الذين استقروا في تلك الأنحاء منذ عصور

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فإنه يلاحظ في بعض جهات بروقانس التي استقر فيها العرب مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص ، يظن أنها ترجع إلى أصل عربي . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا ، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour ، والتي ظهرت في جنوب فرنسا وفي شمال اسبانيا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادي عشر ، وقوامها القريض الحزبي والنسائي ، وزعمائها فرسان شعراء وفنانون . أضف الى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير حضارة أوروبا الجنوبية لم يقف عند هذا المصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت الملائق بعد ذلك طويلاً بين مسلمي الأندلس ، والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها الاجتماعي أعظم الآثار

ولقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا تثير مدى القرن الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقديسها إلينا الرواية الكنسية المعاصرة في أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر ، وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عينهم وسفكهم أهوالاً لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب ، وأضحت تفرق بكل ما هو عظيم ضخمة^(١) ، يقول رينو :